مكتبة مصر
تقدم
مجموعة محمد وصحبه

صبر وحكمة

إعداد أمير سعيد السحار

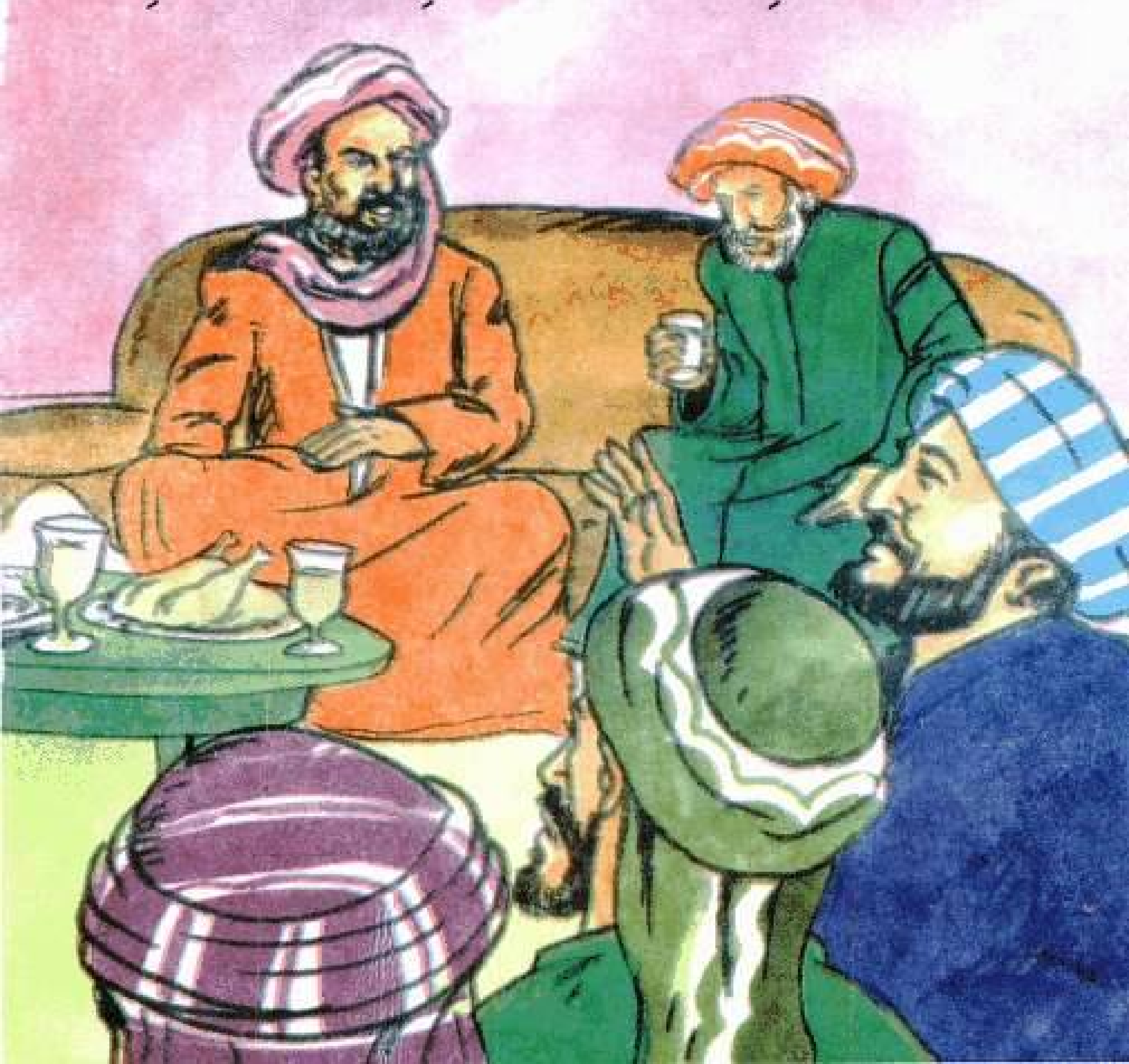


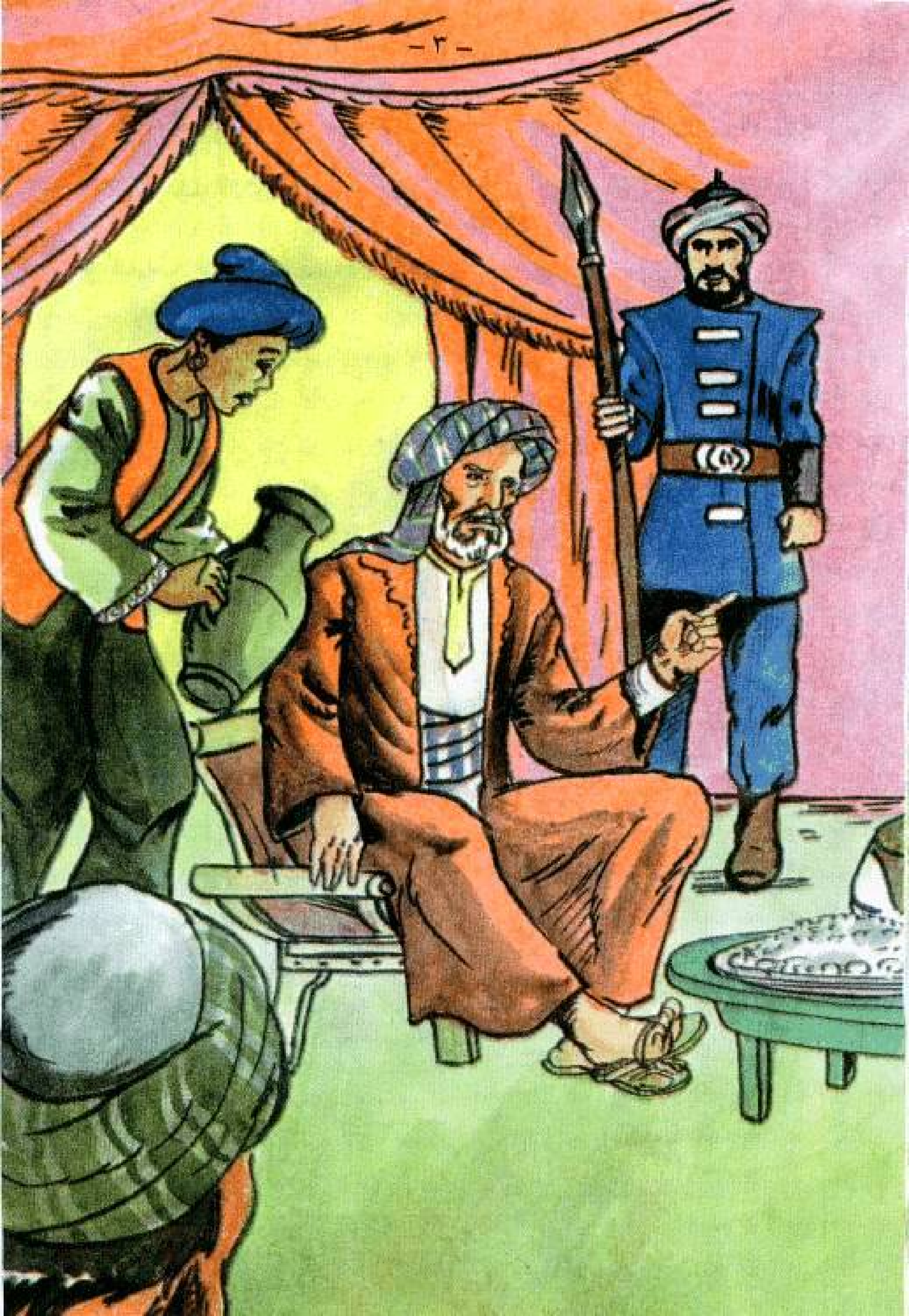
الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي بالفجالة

رسوم
عبد الرحمن بكر

صبرٌ وحكمــة .. !!

صفا الجوُّ وهدأت الخواطرُ ، وأقبل المِنْقَريُّون إلى دار سيّدِهم الحبيبِ ، قيسِ بنِ عاصمٍ ، ليجاذبَهم أطرافَ أحاديثَ شتى ، فى الحربِ والإغارةِ ، والفتْكِ والغدرِ ، والصّيدِ والقنصِ ، والسّحابِ الممطرِ والجدْبِ الماحلِ ،





والأبقارِ والإبلِ ، إلى غيرِ ذلك من أحاديثَ يجد فيها أهلُ البوادى لذةً ومتعةً ، لما يشيع فيها من فخرٍ وتحدثٍ عن النفسِ ، يُرضى طبيعةَ العربى الأصيل ،



ويشعرُه بأنه إنسانٌ يؤثّرُ فى هذه الدنيا ، لا كميةً مهملةً على يسارِ الوجودِ .. !!

واندفع فى الحديثِ ، يطوى هذا وينشرُ ذاك ، وهو فخورٌ بهذه المكانةِ التى يحتلّها فى نفوسِ قومِه ، والمنزلةِ التى تتمتّع بها عشيرتُه بيَن غيرِها من العشائرِ والقبائلِ، وما أجملَ العربىَّ حينما يذكرُ هذه المعانىَ كلّها ، فتنتفخَ أوداجُه ، وتتضخّمَ عنقُه ، ويرتفعَ رأسُه عاليًا بين الرءوس، فلا تكادُ تشعرُ به والحالُ هذه ـ إنسانًا يحيا كما يحيا النّاسُ ـ أو آدميًا يعيشُ كما يعيشون ، بل كأنما هو ملِكٌ من ملوكِ الدنيا فى مكنتهِ أن يطيرَ فى الهواءِ ويلمسَ السّماءَ ، ويحلّقَ فى الأجواءِ ، ويسبحَ بين طبقاتِ الماء ، ويسرى مع الوحوشِ والظباءِ لا يعجزه شىءٌ فى الأرضِ ولا فى السماءِ .. !!

تلك طبيعةٌ غريبةٌ ، يكاد ينفردُ بها

العربىُّ من بينِ غيرِه من أجناسِ الناسِ، ولهذه الصفةِ أثرٌ كبيرٌ فى مجرى حياتِه وطرائقِ معائِشه على الدوامِ .. !!

وكأنما كان إقبالُ الحاضرين عليه مدعاةً لإبداعِه فى الحديثِ وتفنّنِه فيه حتى أعجبَ به الحاضرون كلُّهم أيّما إعجابٍ . وكان منظرُه جالسًا محتبيًا بينهم فى فِناء الدارِ يدفع إلى الإعجابِ والإجلالِ .

وبينما هو على هذه الحالِ من الصّفاءِ الغامرِ والسّرورِ المبينِ ، إذ أُتى له برَجلين : أحدُهما مكتوف، والآخرُ مقتولٌ لاتزال دماؤُه حارّةً قانيةً ، وكأنما كان بدنُه يصرُخ من الظّلمِ ، وينادى بطغيانِ الإنسانِ واستهانتِه بالحياةِ



الغاليةِ العزيزةِ ..

ولكنّ القومَ سهموا وألجمتْهم الدهشـةُ ، وأعظمَهم



العَجب ، وسيطرَ عليهم شعورٌ غريبٌ ، كلُّه الرهبةُ والخوفُ ، والتشاؤمُ الأليمُ ، واعتقدوا أن السماءَ ستُلقى شُواظًا من نارٍ ، وأن الصاعقةَ ستنقضُّ على هذه الرءوسِ جميعًا ، وأن الزوبعةَ ستهبُّ عن قريبٍ ، وأنّ العاصفةَ ستعصِفُ بكل ما فى طريقِها ، وتأتى على الأخضرِ واليابسِ ، وأن قيسَ بنَ عاصمٍ سيشنّها حربًا ضروسًا لا تهدأُ ولا تستقرُّ ..

يااللّهِ ، لقد كان الرّجلُ المكتوفُ ابْنَ أخيه ، والرجلُ المقتولُ ولدَه . وأولهُما القاتلُ .. !!

وصوّبَ قيسٌ نظراتٍ قاتلةً إلى الأفقِ الرحيبِ .. لقد جنْب نظراتِه كلَّ إنسانٍ إشفاقًا به ، وحدبًا عليه ، ووجد فى هذا راحةً ، وفرصةً للتفكيرِ الذى لابد منه فى هذا المأزقِ الحرجِ .. لقد صوّر له الغضبُ ألوانًا رحيبةً من الحلولِ ، فيها جميعًا دماءٌ حارةٌ قانيةٌ ، وشقاقٌ ونضالٌ ، وعداوةٌ مستحكَمةٌ ، وأرواحٌ تزهق،



ونفوسٌ تسيل على أسنّةِ الظبا والسّيوفِ ..!!

وارتجف بدنُه لكلّ ذلك ، واضطربَ فؤادُه ، وهلَع قلبُه ، وأحسّ به يخفق فى عنفٍ وشدةٍ ، حتى كاد ينخلعُ ويطيرُ ، ولكنه تماسك قليلاً ، وهزّ رأسَه كأنما يطردُ هذه الأفكارَ السودَ من مخيّلته .. وزفَر زفرةً شديدةً ارتجف لها مَن حولَه ، وتلاقت أنظارُهم ، وفهموا ما يعتمِل فى نفسِه من أحاسيسَ ، ويختلجُ فى قلبِه وفؤادِه من مشاعرَ حمراءَ قانية .

ولكنه لم يرَ فى كلّ هذه البهيميةِ الشهوانيةِ الحمراءِ إرضاءً لنزعاتِه ، وإرواءً لنَهمتهِ ، بل على العكسِ وجدَ فيها لهيبًا يندلعُ أوارُه وحريقًا تعلو فى الجو نيرانُه فتعصفُ بالقبيلةِ بأسرِها ، ولن تقفَ عند هذا الحدِّ ، فهناك زوجاتٌ تتعصّب ، وَتلِغُ ألسنتُهن فى الدماءِ الحارة وتؤجّجُ النارَ فى الصدورِ ، وتشعلُ الحقدَ فى

الأفئدةِ والقلـوبِ .. وحولهن قبـائلُ كثـيرةُ الفـروعِ والبطونِ ، ولا بدَّ من اتصالِ هؤلاءِ جميعًا بالمعركة ..

بيدَ أن قيسَ بنَ عـاصمٍ هـدأَ فجأةً ، ونضـحَ وجهَه بـالعرَقِ البـاردِ فارتـاح من حولـه ، وتمكـن من جـاء بالرجلين من الكلامِ :

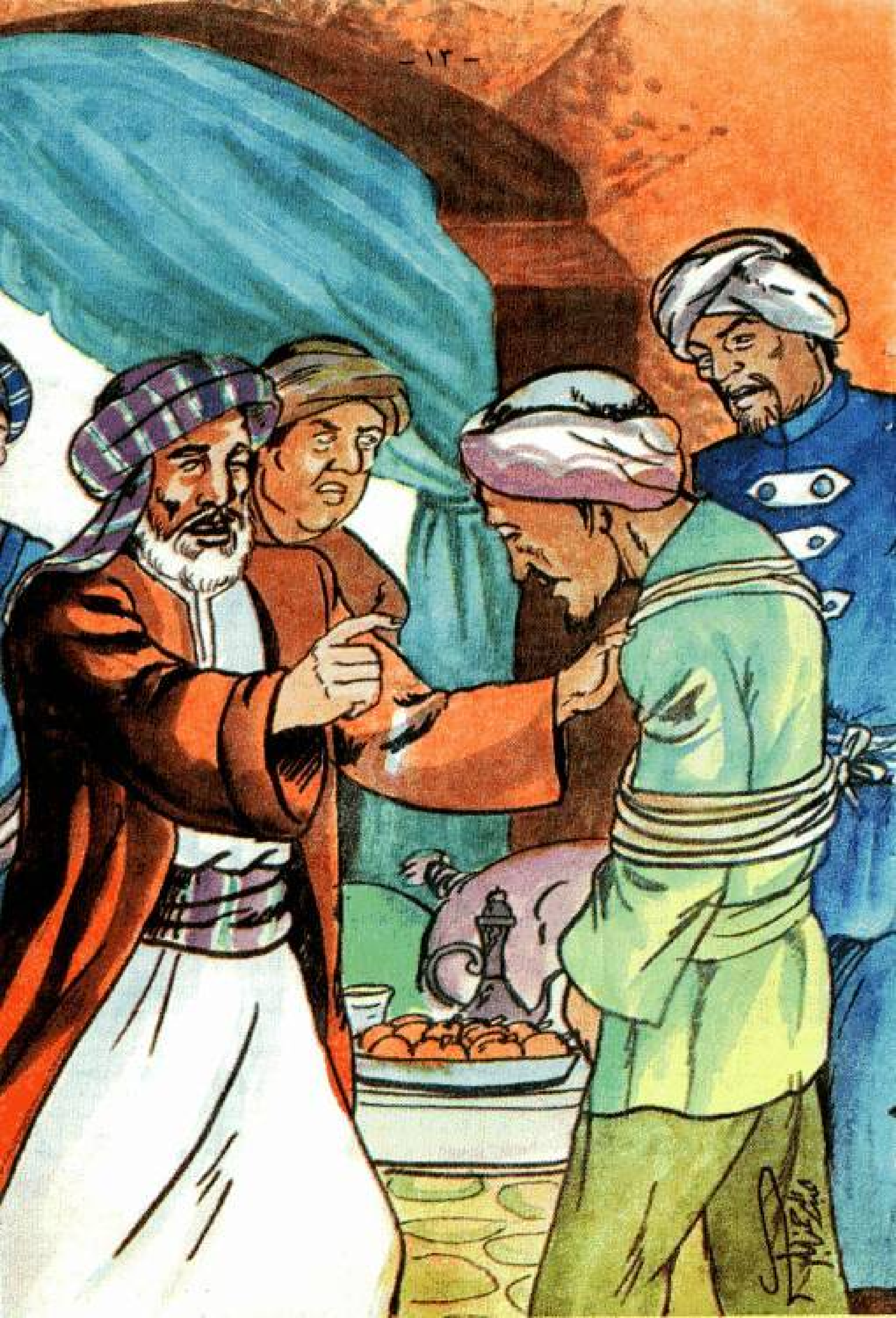
ـ هذا ابنُ أخيك قتل ابنَك .. !!

غيرَ أنه تابعَ حديثَه ، وظلَّ محتبياً كما كان واتّجه إلى ابنِ أخيه قائلاً فى عتابٍ :

ـ أنتَ رميتَ نفسَك بسهمِك ، وقتلتَ ابنَ عمِّك .

وصمت ابنُ أخيه وقـد شعَر بموقفِـه على حقيقتِـه ، فأدركـه لـونٌ من النّـدمِ والذلـةِ ، وأطـرقَ برأسِـه إلى الأرضِ فى خضوعٍ .

واكتفى قيسٌ بذلك ، فنظرَ إلى ابنٍ له آخرَ فى قـوةٍ وحزمٍ ، وقال :



ـ قمْ يا بُنَى فادفِنْ أخاك ، وحُلَّ كِتاف ابنِ عمّك .

وتوقف قيسٌ قليلاً ، فما أسرعَ الخطراتِ الفكريّةَ فى هذه السّاعاتِ العصيبةِ مع رجلٍ موفّق ، إنها لتنهالُ انهيالاً من كل ناحية ، وتنثال انثيالاً من كلّ فج ، وتواتيه فى سهولةٍ ويسرٍ .. لقد هدأت نفسُ قيسٍ بعد فَورةٍ، وارتاحتْ بعد ثورةٍ ، وعلمَ أن الشيطانَ عند كل حلّ ثائرٍ ، أو رأىٍ فائرٍ ، وأنه لَمِن الضعفِ أن يندفعَ الإنسانُ فى هذه السبيلِ أعمى أصمَّ ، ينقادُ لتلك الشهواتِ الجائرةِ الحالقةِ ، التى تقطعُ الأرحامَ ، وتباعدُ بينَ النّاسِ ، وتقضى على صفاتِ الخيرِ والبرِّ ، فلا يكونُ سوى الغضبِ الماحقِ إمامًا ، والرأىِ الأفنِ رائدًا، والمظهرِ الوحشىِّ قائدًا .. !!

أجل هدأ قيسٌ ، وارتاح قومُه لمظهرِه ، وكأنما أُزيحَ عن كاهِلِهم عبءٌ ثقيلٌ ، وأصاخوا إليه حينما تابع



حديثَه مع ابنِه :

ـ واحمِلْ إلى أمِّك مائةً ، دِيةَ ابنِها فإنها غريبةٌ .. !!

وغامت فى الجو سحابةٌ عجيبةٌ ، وانعقدت الألسنُ وخرِست ، وذهَل المنقريون لهذه الحكمةِ الساميةِ ، التى حفظت لهؤلاء جميعًا من قومِه وقومِ زوجتِه دماءَهم وأرواحَهم وأولادَهم ، وذراريهم من بَعدِهم ، ولكن عجَبهم لقوةِ الرّجلِ ، وامتلاكَه لزمامِ نفسِه واحتمالَه لهذه الطعناتِ المسدَّدةِ ، ولذلك الحملِ الثقيلِ ، كاد يذهبُ بألبابهم ، ويطيرُ بهم كلَّ مطيرٍ ، وتفاهموا بالنظراتِ الصّامتةِ ، ولكنها بليغةٌ فصيحةٌ ، وارتسم على كلِّ وجهٍ دلائلُ الإعجابِ والتّقديرِ .. !

